رسالة الأديب العربي في مكافحة الامبريالية

بقلم هاني الراهب

مقدمة :

اكتشفت أوروبا الآلة البخارية فقلبت نظام الصناعات اليدوية رأسا على عقب ، واصبح المصنع منطلق الوفرة والعبودية معا.وتحولت ملايين من القوى العاملة في الريف الى المدينة ، من القنانة الى البروليتاريا ، وصارت مصدر الرفاه لطبقة متحكمة أخرى . وكان لا بد للمصنع من اسواق تستهلك انتاجه فازدهرت التجارة عبر المنافسة والمزاحمة ، واقيمت المصارف الى جانب المصانع . وبتوسع الانتاج وغزارته شعرت البورجوازية الصناعية بالخطر يتهدد أسواقها المحلية، وقام نظام الحماية الجمركية الذي افضى بدوره الى نشوء الحركات القومية في اوروبا . وانقسمت القارة الى قوميات متصارعة تحاول كل منها فرض سيطرة المصنع على الاسواق . لقد نجم عن هذا الوضع الجديد حروب ومنازعات ذهبت ضحيتها جماهير البروليتاريا ، وكانت البورجوازية الصناعية هي الرابح الوحيد .

لكن القوميات الاوروبية خرجت من دائرة الصراع القاري على الاسواق الى دائرة اوسع هي العالم . وكان يرافق هذا الخروج نزعة نحو التوسع والمغامرة ، فبحثت في مناطق العالم المتخلفة عن امتداد يغذي نهمها وجشعها ، وهكذا نشأ الاستعمار ، وعند هذا الحد من التطور كان الاطار الرأسمالي للقوميات الاوروبية قد استكمل ابعاده ، فحمل الى ما نسميه الآن بالعالم الثالث صراعاته وسيطرته ، وكانت الضحية الشعوب المتخلفة المغلوبة على أمرها . وقد اقتضى ذلك كثيرا من الجهد الدعائي والاعلامي لاقناع العامل الانكليزي أو الفرنسي او الالماني أن عظمته رهن باحتلال الهند والجزائر وجنوب افريقيا . واستطاع الحكم البورجوازي الرأسمالي ان يقوم بالخطوة الاولى . جند آلافا مؤلفة من الشباب وقذف بهم في القارات الثلاث : اميركا وافريقيا واسيا . وصارت كل قومية تعمل لمصلحة طبقتها الحاكمة . وهجم الاستعمار فاحتل القارات الثلاث احتلالا مباشرا . وكان في اولى مراحله التاريخية احتلالا عسكريا ثنائي الهدف ، فهو اولا يخضع القطر المحتل ويحكمه مباشرة ليبيد كل مقاومة فيه كما حدث في الاميركتين واستراليا ، وهو ثانيا – يجعل منه سوقا لتصريف منتجاته وموردا ثابتا للمواد الاولية الرخيصة .

لكن استمرار الاحتلال العسكري في كثير من الاقطار كان امرا باهظ التكاليف . ونحن نعرف من تاريخ الجزائر أن قضية نفض اليد من الجزائر ، أثناء مقاومة الامير عبد القادر ، قد طرحت للبحث جديا : اذا كان الحصول على الانتاج الزراعي يكلف اضعاف ما يستفيد المستعمر فما الفائدة من هذه العملية وهي في الاصل عملية كسب ونفع ؟ هنا نشأت فكرة الاستعمار الاسكاني البشري ، وهي ليست فكرة جديدة . لقد طبقها الفرنسيون في الجزائر والايطاليون في ليبيا ، والانكليز في جنوب افريقيا وروديسيا واستراليا وكندا وما يسمى الآن الولايات المتحدة . وأثبت الاستعمار البشري انه ارسخ واقل كلفة . فالمقيمون من البلد المستعمر يطردون السكان الاصليين من مدنهم وقراهم الى الصحارى او يمارسون عليهم عملية افناء وابادة . ومن يتبقى منهم يجعلونه عبيدا وخدما . وعبر هؤلاء المستوطنين المستعمرين تستطيع الطبقة الرأسمالية الحاكمة ان تصنع قوة قادرة على ادامة الاحتلال الى ما لا نهاية كما تصور المستعمرون في هذه المرحلة .

وهكذا ، فاليقظة القومية في اوروبا كانت هجوما عدوانيا استهدف تأمين الاسواق واستنزاف المواد الاولية . وقد اعقبتها يقظة ثانية افتتحت عصر نضال الشعوب دفاعا عن وجودها . لقد ظهر فيما بعد أن الاستعمار البشري والاحتلال العسكري لم يحلا المشكلة في جميع الاقطار المستعمرة . فحيثما بقيت من الشعوب بقية ولدت حركات النضال . لم يفن مليون مقيم في الجزائر ومثلهم في ليبيا ، وضعفهم الان في فلسطين ، عن الدعم الخارجي والقوة المسلحة ، ولم يخفف من نفقات الاحتلال . وكانت الحرب العالمية الثانية فرفعت زخم نضال الشعوب الى ذرى عالية . قاومت الشعوب ونظمت ابناءها وطاقاتها في جبهات تحرير . وواحد تلو الآخر انتزعت استقلالها . ولم يعد هذا النوع من الاستعمار ممكنا بشكله التقليدي .

لكن الرأسمالية العالمية لم تقف متفرجة أمام هذا التطور الخطير، فسارعت بتطوير أساليبها وبنيتها . لقد ازدهر رأس المال وصار قوة اقتصادية مستقلة بذاتها . وبالتدريج صار للمصرف شخصية استعمارية قوية ما لبثت أن الحقت بها المصنع وعماله وانتاجه . وبعد أن كان المصنع هو الذي يأمر المصرف ويوجه سياسته ، صار جزءا من نشاطاته وتابعا له . وبدلا من أن يذهب جنود الاحتلال الى الهند او غيرها لتأمين مصالح الاستعمار الاقتصادية صار المصرف في لندن ونيويورك وباريس يفعل ذلك في مبنى ضخم باحد شوارع العاصمة الرأسمالية الثروستات المصرفية غدت تحكم العالم . هنا ، لا جنود احتلال ولا نفقات اضافية . هنا يكمن اعداء غير منظورين يحكمون الطوق على اقتصاد العالم ، ويمررون من مبانيهم الضخمة كم يدفعون ثمنا لكيلو القمح او بالة القطن بصرف النظر عن كلفة الانتاج . وهكذا ولدت الامبريالية بمعناها الحديث .

الاستعمار الجديد يتركز على سيطرة رأس المال الشاملة على الانتاج والتجارة ونوع السلع والاسعار وغيرها من مظاهر الحياة الاقتصادية . فاذا انتهجت دولة ، محصولها الرئيسي القطن او السكر ، سياسة معادية للاستعمار طرح ملوك المال القطن والسكر في الاسواق العالمية باسعار تقل عن كلفة الانتاج . وعندها يكسد المورد الرئيسي لهذه الدولة او تلك وتوجه الى اقتصادها ضربة خطيرة لا تستطيع ان تتحملها .

ومن نافل القول الاشارة الى ان مراحل الاستعمار تتوارث بعضها بعضا . وعندما نقول مراحل ... فنحن نعني فترات زمنية كأنما قطعت بسكين . اننا الآن في هذه الفترة التي تشهد اندفاعية رهيبة من الامبريالية ، تعثر على كافة الاشكال الاستعمارية ، كالاحتلال العسكري للدومينيكان وفيتنام الجنوبية ، والاستعمار البشري في فلسطين وروديسيا وافريقيا الجنوبية ، الى الاستعمار المصرفي كما هي الحال في اليابان والمانيا الغربية – وهو احتلال مالي مباشر ، وفي دول العالم الثالث واوروبا التي تقع ضمن دائرة السعر العالمي الاميركي للمواد .

ويعاني وطننا العربي من هذه الاشكال جميعها .. فالخليج العربي شريط من الامارات الواقعة تحت الاحتلال البريطاني – باستثناء الكويت – وفلسطين تحمل على صدرها مايونين ونيفا من المستوطنين بدأوا بخرافة وتحولوا الى عدوان وشردوا السكان الاصليين تحت كل نجم ، وثمة اجزاء من الوطن العربي سلخت لتعطى الى دول مجاورة ثمنا لمؤامرة واضعافا للوطن نفسه ، كاريتيريا واسكندرون وعربستان. ونضيف الى ذلك وقوع بلداننا العربية في قبضة الاحتكارات البترولية والمصرفية .

لكن اشد هذه الاشكال خطرا وضراوة هو الحركة الصهيونية المرتبطة عضويا بالاستعمار قديمه وحديثه . فهي تشكل حاجزا بشريا لتجزئة الوطن العربي ، ووجودها العدواني يستنزف نسبا عالية من

موارد الامة العربية المضطرة للدفاع عن وجودها ومصالحها ، كما انها تثبت مصالح الامبريالية العالمية في أجزاء كثيرة من الوطن . ويردف الحركة الصهيونية محاولات الامبريالية لاقامة احلاف دفاعية توطد نفوذها ، والهاء الشعب العربي بدعوات رجعية مستترة بالقيم السماويه، وبالعدوان المتكرر المباشر الذي بلغ الذروة في حزيران (يونيو) من العام الماضي ولم ينحسر بعد .

ان وطننا هدف الامبريالية ، وطن تزيد مساحته عن عشرة ملايين كيلو متر مربع وسكانه يبلغون مئة مليون من البشر ، وموارده لا حد لها. ماذا تعني هذه الارقام عند الامبريالية ؟ انها تعني ولادة قوة هائلة في العالم الثالث تهدد ينابيع الثروة التي تخم جيوب الرأسماليين ووطننا يستنجد الان بكل ما في شعبه من قوة وامكانيات ، خلال مقاومته الضارية للامبريالية .

الغزو الثقافي الامبريالي :

اشرنا الى اشكال الاستعمار قديمه وجديده ولم نشر الى الشكل الثقافي لاننا اردنا افراد فصل خاص به . ان هدفنا هنا التوكيد على ان الثقافة الامبريالية هي دوما في خدمة الرأسماليين ، وتحليل الاثر الذي خلفته هذه الثقافة في وطننا .

لكي ندرك المضمون الواقعي للثقافة الامبريالية علينا اولا ان نكشف عن المصالح الاساسية التي تختفي وراء هذه الثقافة . فالايديولوجية الامبريالية التي يصدرها الغرب الاستعماري مع دؤوس الاموال ومع الاختكارات ، ليس لها في التحليل النهائي الا دور واحد وهو التمهيد لهذه الاختكارات وخلق كل الشروط الثقافية لدى جماهير البلدان المتخلفة لقبولها والدفاع عنها .

ان هدف الثقافة الامبريالية لا يمكن الا ان يربط بهدف السياسة الامبريالية ، اي بدعم النفوذ والسيطرة الاستعماريه . الثقافة تخدم السياسه والسياسه تخدم الاختكارات وبادراكنا نجوهر الامتداد والتوسع الامبريالي يتحتم علينا مباشرة الكشف عن الايديولوجية الخاصة التي يخفي خلفها هذا النفوذ وذلك الامتداد . انها الايديولوجية العنصريه ، مزينة بالكثير من الالوان الديمقراطية والليبرالية وحرية الفرد والملكية الخاصة ...

فبدون نشر قناعات خاصة لدى شعوب العالم الثالث ، قناعات للتشكيك بالحاضر وبقدرة هذه الشعوب على تجاوز تخلفها ، لا يمكن للامبريالية أن تحافظ على نفوذها السياسي .. وبالتالي على مصالحها الاقتصادية . ومن أهم هذه القناعات نشر ما يمكن تسميته لدى علماء الاجتماع الاميركان ب ((العقلية المتخلفة)) العاطفية والمتعارضة مع العلم اساسا ومع المنهج العقلي . وليس من المستغرب بعد ذلك ان تكون الدوائر الاستعمارية هي الدوائر المبادرة الى اخذ التراث الثقافي العربي ونشره مرتزة كل التركيز على الفكر الصوفي ـ المضاد للعقل ـ من هذا التراث دون أن تلمح الى ان هذه العقلية لها خصائصها المحببة والمستحسنة ايضا . ولكنها وهي تقوم بذلك لا تتجاهل كل الجوانب الايجابية ـ العقلية والعلمية ـ في التراث العربي فحسب ، وانما تعمل أيضا على طمس هذه الجوانب وربطها بتأثير الثقافات الاجنبية واليونانية بشكل خاص .

وتأخذ الحرب الثقافية الاستعمارية أهمية خاصة وفعالية كبيرة نتيجة للظروف الاجتماعية المتخلفة التي تعيش فيها شعوب العالم الثالث ، فتضرب على وتر النزاعات العشائرية والطائفية والاقليمية ، وتمارس شتى أنواع الضغط على المثقفين المستنيرين والتقدميين الذين تزداد اهمية دورهم في ثورات بلدانهم مدركة مدى نفوذ حركة الطلاب والمعلمين وبقية فئات ((الانتلجنسيا)) التي تشكل دون شك القاعدة العريضة لمعظم الحركات الشعبية الثورية في العالم الثالث .

ومن هنا تأكيد الامبريالية وفي مقدمتها الامبريالية الاميركية على ضرورة العمل باستمرار في صفوف المثقفين وعلى الجبهة الثقافية من اجل نشر ايديولوجية النفوذ الاستعماري لدى بعضهم ، وتشويه ومحاربة الثقافة التحررية الاشتراكية في صفوف الفئات الاخرى ، محاولة اعطاء بديل كاذب شكلا ومضمونا . فهي لا تكتفي بنشر الدعاية للعالم ((الحر)) وللديمقراطية الغربية وللثقافة الامبريالية فحسب، ولكنها تعطيها شكلها أيضا : اللغة الهجينة ، تلك اللغة التي كثيرا ما تستعمل ليس كمنهج براغماتي وانما كصورة أيضا وكأحرف لاتينية .

ولكي ندرك كيف تحاول الامبريالية تجنيد الثقافة في خدمة السياسة والحرب الاستعمارية يجدر بنا أن نستمع الى مساعد وزير الخارجية الاميركية السابق ، فيليب كوفر اذ يقول : ((أن لكل من الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية قصورها ، في حين ان المكون التعليمي ((الثقافي)) يمكن أن يدعمها بطرق شتى . واذا استخدم بذكاء وحذق لامكن أن يحقق امورا تعجز عن تحقيقها الوسائل الاخرى. وهذا البعد ـ يقصد البعد الثقافي ـ يكسب السياسة الخارجية الاميركية حيوية متجددة وعمقا ومرونة)) .

ولكي نجسد الامبريالية الاميركية هذا البعد في الواقع العملي فانها مضطرة الى استخدام كل المؤسسات العلمية والثقافية والنفوذ الى داخلها وتوجيهها وما انكشف اخيرا من سيطرة المخابرات المركزية على المنظمات الطلابية في العديد من بلدان العالم ، ثم على الاجهزة الثقافية كمنظمة حرية الثقافة التي كانت تصدر العديد من المجلات بتمويل المخابرات المركزية ذاتها ، وما انكشف أيضا من سيطرة هذه المخابرات على جميع اوجه النشاط الثقافي الذي مارسته الولايات المتحدة في مختلف الاقطار مثل جمعية أصدقاء الشرق الاوسط ، او حتى الهيئات العلمية كالجامعات والمعاهد المنتشرة في اكثر من قطر عربي .. كل ذلك يؤكد مدى الاهمية التي تعطيها الامبريالية للنفوذ الى داخل عقول المثقفين وربطهم عن طريق أجهزة تبدو ثقافية محضة بالمخابرات التي تستفيد من ذلك مباشرة في توجيه السياسة الاستعمارية وتدبير المؤامرات والانقلابات . وليس من قبيل المصادفة ان تكون مؤسسة (فورد) مثلا هي من أنشط الاحتكارات في المساعدة على بناء المؤسسات العلمية ، بل وحتى الجامعات في البلدان المتخلفة .

ان الاقنعة التي تختفي وراءها الدعاوة الامبريالية ، والاميركية منها بوجه خاص ، من الادعاء بمحاربة خطر ((الشيوعية)) الى حماية الديمقراطية وحماية الفرد وحريته ، هذه الاقنعة لم تستطع ان تخفي في اي وقت من الحقيقة الواضحة وهي أن الدوائر الاستعمارية تحاول أن تجعل من نفسها دركيا دوليا ـ ليس فقط في المجال الاقتصادي والسياسي ـ وانما في المجال الثقافي أيضا . ولكن هذه الحقيقة تخفي بدورها مضمونا عنصريا هو في اساس الثقافة الاستعمارية . انها عقلية الوصاية على شعوب لم تنضج بعد ، عقلية الرجل الابيض السائدة والتي ما زالت الدوائر الاستعمارية تفكر من خلالها وتتصرف داخل اطارها .

وينشر هذا الفكر العنصري تحاول الامبريالية ان تشد الى صفها كل مثقفي العالم الثالث خاصة اذا ما ادركنا ان القسم الاكبر من هذه البلدان ما زال يفتقر الى بنية ثقافية عصرية وناضجة .

ولا تتورع الدوائر الاستعمارية عن استغلال كل المعاهدات الثقافية والاتفاقات العلمية ، التي هي في الاساس جزء من التعاون الانساني الشامل من اجل التقدم ، عن استخدامها في سبيل التجسس لصالح الحرب واثارة الفتن والاضطرابات والانقلابات . وهذا ما كشفته وثائق اعمال الوحدة الطبية ((للبحرية الاميركية في القاهرة)) التي كانت تقدم تقارير للبحرية الاميركية تحتوي على الكثير من المعلومات الطبية ذات الطابع العسكري ، خاصة في الحرب الجرثومية والوقاية منها وتطورها .

والولايات المتحدة في محاولتها تشويه الثقافة العربية ، وغيرها من ثقافات البلدان الاخرى لا تختلف عن اية دولة استعمارية اخرى الا في شيء واحد هو استغلال الثقافة عن طريق المخابرات في توجيه السياسة الخارجية الاميركية مباشرة ، وفي تدبير الحركات المضادة للثورة التحررية ، في حين لم تكن الدول الاستعمارية القديمة تطمح

الى اكثر من ضرب الثقافة الوطنية بغية تهديم البنية القومية ومحوها في المستعمرات .

وليس من قبيل المصادفة أن يحاول علماء الاقتصاد الاميركيون وهم يعدون نظرية للقضاء على التخلف في العالم الثالث ـ التأكيد الدائم على أن العامل الاساسي هو العامل الثقافي ، في تجاوز الوضع المتخلف . الا ان ذلك يخفي حقيقة خطرة ، حقيقة دور الامبريالية في تخلف الشعوب وهذا ما يثير قضية جديدة . ذلك أن الفكر الاستعماري الهادف الى المحافظة على قوة الاحتكارات ونفوذها في العالم ، قد دخل فعلا في حقل البحث العلمي الاقتصادي والاجتماعي وهو يقدم نفسه الى الشعوب الناهضة على طبق من فضة ، وتحت عناوين واسماء براقة لعلماء الاقتصاد والاجتماع المشهورين . ويمكننا اجمال الخطوط الرئيسية للغزو الثقافي الامبريالي في المظاهر التالية : جند الغزو هم المكتبات والافلام ، الصحف والمجلات ، الكتب ومؤسسات الترجمة والنشر ، البعثات والمنح الدراسية . وتبذل الامبريالية كل ما تستطيع من جهد من اجل تدعيم المراكز الثقافية ومكاتب المعلومات ومؤسسات مثل مؤسسة فرانكلين مثلا ، التي عملت منذ نشوئها على محاربة الفكر الاشتراكي وشراء المثقفين . وتعمل هذه الوسائل وفق خطة محكمة وراء غايات ظهرت تحققاتها في وطننا على نحو جلي . فهي قد تناولت التراث وقدمته أما مشوها أو من منطلق رجعي واستطاعت بذلك أن تحقق نفوذا عاما منه أو تناولا مرضيا له . وعبر اضطراب المثقف العربي ازاء ثقافته القومية . أو النظر اليها نظرة حائلة نرجسية لا تتفق ومتطلبات العصر العلمية ، طرحت الثقافة الامبريالية بديلا عربيا في ثوب قشيب واغراءات لا حد لها . لقد استطاعت ان تخاطب الجانب الرحو من شخصية المثقف العربي وتبهره بالمعانيات الفردية والذاتية فعزلته زمنا عن عناء امته ومصالحها .

وقد اغرت هذه الوسائل ما يسمى بالقوة الفكرية فحملتها الى المجتمعات الرأسمالية لتلقي العلم والاختصاص فمنها من عاد بمفاهيم واخلاق ليبرالية الى وطنه وكان بالضرورة سندا للامبريالية متعاطفا معها وضعيفا أمام هجومها المستمر ، ومنها من بقي هناك وخسره شعبه . وان ظاهرة التربية والتثقيف في معاهد الغرب لتخريج حكام المستقبل في دول العالم الثالث ، ظاهرة ابتليت بها هذه الدول كافة . كما ابتليت بالاختصاص المستمر للنخبه التي كان مفروضا ان تقود الامة في دروب النضال والتقدم . وقد خلفت الثقافة الامبريالية نوعين من الشخصيات كلاهما لا غنى عنه . النوع الاول يندرج في ما نسميه بظاهرة النكوص . فبعض من تعرض للتأثيرات الامبريالية المبرمجة احس بخطر الذوبان والتلاشي . وكانت ردة الفعل عودة متقوقعة الى مفاهيم وقيم ومعان عطلها الزمن أو طمرتها الاحداث فلم تعد حقيقتها الناصعة تبين او شوهت الامبريالية اصالتها من غير أن يدري.ووجدت الرجعية العربية متنفسا لها وحجة عندما تصدت لتيار التحرر القومي الاشتراكي أن تدافع عن هذه القيم والمعاني والمفاهيم في صورتها الحاضرة ، وتستر عجزها عن فهم عصر العلم والتكيف معه .

والنوع الثاني من الشخصيات يندرج في ما نسميه بظاهرة الانخلاع . كثيرون هم الذين رفضوا كل شيء . رفضوا التاريخ العربي والشخصية العربية ، والعروبة جملة وتفصيلا . وظهرت لهم دعوات ندعوها مرضية اهمها الدعوة الاقليمية وتظاهرات اهمها استيراد هموم انسان المجتمعات الغربية وسلبيته . ان الدعوة الى الكتابة باللهجات المحلية احدى نتائج هذا الانخلاع ، والاستغراق في الجنس والخمر والعبث نتيجة ثانية . ومرة اخرى افادت الرجعية من هذا التيار لتبرر نفسها . ونشأ الصراع بين الانجاهين الغريبين ، ليهدر طاقات ويلهي جماهير المثقفين عن قضيتهم الاساسية . والى جانب هذين النوعين من الشخصيات نشأ نوع ثالث هو الشخصية الواعية الايجابية . لقد استطاع كثيرون من ابناء هذا الوطن النجاة من متاهتي النكوص والانخلاع وكونوا لانفسهم رؤية ووجهة نظر ، وتبنوا قضية . وعلى هؤلاء بالدرجة الاولى يقع عبء مكافحة الامبريالية ككتاب ومثقفين .

موقف الاديب العربي :

نحن نرى في الاديب ممثلا للطبقات الشعبية الكادحة ، بلورة شعبية . لقد ظهر جيل من الادباء تكلم باسم البورجوازية وانطلق من مفاهيمها وبشر بقيمها وتقاليدها . لكن هذا الجيل لم يستطع ازاء الهجمات الامبريالية المتوالية أن يسهم في تيار الثورة الجماهيرية التي تصدت للامبريالية . فهو بحكم تأطره البورجوازي ظل غريبا عن قضية النضال القومي التي هي بالدرجة الاولى قضية الشعب الكادح، او انه في افضل الحالات تبنى موقفا تطوريا ليبيراليا يتناقض والموقف الثوري الذي فرضته حتميات التصدي للغزو الامبريالي الصهيوني .

ان ما نعنيه بالاديب في مواجهة الامبريالية هو الاديب المتمثل لهموم وتطلعات سواد الشعب ، المتكلم باسمه والراصد لموجات نضاله. وهو في هذا الميدان يضطلع بمهمتين اساسيتين ، الاولى مشاركته الفعلية والحاسمة في النضال السياسي والاجتماعي لشعبه ، فالاديب ليس متفرجا ، ولا هو شاهد وحسب . وحياته لا تكتسب معانيها وقيمها الا بالممارسة . الممارسة وبعدئذ الشهادة . وفي حدود امكاناته الشخصية يستطيع ان يأخذ دوره في معركة وطنه بدءا بالتبني الموضوعي لهذه المعركة ووصولا الى النضال الشعبي المسلح .

المهمة الثانية هي تكريس الاديب انتاجه لتقديم نماذج ثورية مكافحة عبر الزمان والمكان . ان المعاني والقيم العالية الانسانية والجمالية تنبثق من نضال الشعوب لتحرير ذواتها وطاقاتها ولتحطيم الاستعمار فلسفة ووجودا . لقد رأينا كيف طوقت الامبريالية العالم عسكريا وبشريا ثم اقتصاديا وسياسيا وثقافيا . ورأينا ان انهاء عصر الامبريالية ليس فرض كفاية ، وانما هو واجب محتم على جميع الشرفاء. ان الاديب في هذا المحتوى وهذه الظروف ، لا يسعه ، وهو ضمير امة وصوت نبوة ، الا التغلغل عميقا في وجدان امته المضطرم وتجارب حياتها المنتكسة والظافرة .

ولعل سائلا يسأل : السنا ضمن هذا الخط نقع في تحديد معالم الاديب وتوجيه قسري لانتاجه ؟ وجوابنا عن هذا السؤال ، ببساطة هو : كلا . ان النضال ضد الامبريالية ليس نزهة في الزمن وتيار الحياة قد تفضلها نزهات اخر في الجمال والآلة ووحدة الانسان . نحن ، وجميع شعوب العالم الثالث ، نعيش مخاضا حضاريا ونعاني من تدخل قوة خارجية معادية تحاول اجهاض ولادتنا الجديدة . ان معنى حياتنا واستمرارها ومفتاح مدينة التجارب الخالدة رهن بالتصدي للامبريالية ودحرها . وهذه النماذج ، الفردية أو الجماعية ، التي تعانق معركة حماية الذات وايلادها هي الجديرة بسجل الادب لانها الحركة الوحيدة المعبرة عن عافية الامة وجريان التاريخ . انه عالم رحب ، فيه تشهد الانسانية لاول مرة شعوبا باكملها تعبر عن شخصيتها ضمن اطار عالمي من المشاركة ووحدة المصير ، وفيه تشهد الانسانية لاول مرة عملية تطهر فردي وجماعي عبر صراع محتدم ومباشر مع القوى المعادية ورواسب التخلف في الذات القومية .

ان توكيدنا على هوية الاديب الشعبية يعني اننا نرفض شعراء البلاط وحكايات الجنس والحب الخائب والانتاج الترفيهي المسطح . وهو يعني تضاعف مهمة الاديب وشمولية رسالته . وفي رأينا ان موقف الاديب ، انطلاقا من هذا التصور يتخذ مجاري ثلاثة :

مقاومة الغزو الثقافي الامبريالي ،

التحرر الذاتي ،

تقديم التراث تقديما ايجابيا .

رأينا ان الامبريالية تستخدم لادامة سيطرتها على العالم اسلحة ثقافية فعالة . ورأينا ان هذه الاسلحة تشمل الافلام والكتب والمجلات والصحف والنشرات واجهزة الامم المتحدة والمراكز الثقافية والمنح الدراسية والمدرسين . وتعمد الامبريالية كذلك لى افقار شعوب العالم الثالث من مثقفيها بامتصاصهم او خنق مواهبهم والى تشويه تراث الامم وتقديم بديل كاذب تخلقه هي وتفرضه .

أن محاولات التاليف بالفرنسية أو الانكليزية أو اللاتينية مظهر من مظاهر نجاح غزو الامبريالية الثقافي لشعبنا . وان الدعوة الى نبذ العربية الفصحى والانصراف عنها الى اللهجات العامية الاقليمية مظهر اخر . الشعر الطويل المنفوش ، والعبث ، واللامعقول ، والضياع والغربة ، والجنس ، والسأم ، والبطل الذي لا يقهر ، واسطورة الرجل الابيض ... كل هذه مظاهر اخرى لنجاح هذا الغزو .

ونحن في مقاومتنا للهجة الثقافية الامبريالية ننطلق من فكرة اساسية : أن وطننا لم يستقل الا استقلالا جزئيا وان آخر ما يرحل من مخلفات الامبريالية هو ثقافتها . وفي وجه البحر الزاخر للثقافة الامبريالية نجد أنفسنا معرضين للضياع كشخصية وقيم ونضال . والاديب مطالب بدخول معركة اثبات وجود وتوكيد ذات قومية نامية . ان مهمته الكبرى تقديم نماذج مضادة واصيلة تعيش ابعاد الثورة ومتطلباتها . فليس « غودو » الذي ينتظر ما لا يجيء مثالا ولا هو يمت الى محمود حجازي وثروة عبد الهادي . و « دينو » بطل السأم الذي ينتهي الى المستشفى اثر حادث سيارة ليس مازن ابو غزالة الذي سقى بدمه تراب فلسطين ، وشعبنا ليس شعب خرائيت يرسلها يوجين يونيسكو في شوارع المدينة . لقد قدم العقل الامبريالي شخصية أخرجتها مصانعه ، هي مزيج من دينو وغودو والرجل الابيض والخنافس ، وطرحها في السوق العربية ، وهو في هذا منسجم مع مخططه الشامل في ملء الفراغ الذي زعم وجوده في المنطقة وكما كان رد القوى التقدمية حاسما وفوريا على مشروع ملء الفراغ السياسي في وطننا ، ينبغي أن يكون ردنا على محاولة ملء الفراغ الثقافي .

ولهذه المهمة التاريخية ، كما لمهمة المقاومة السياسية للامبريالية ، طريقان هما : التصدي والبناء . ان وطننا غني بالادباء الممتازين ، وغني أيضا بالمجلات والصحف التي تعنى بشئون الادب والفكر.ويمكننا ان نخلق اكثر من منبر لتشريح البنية السامة للثقافة الامبريالية . ونحن هنا لا نرغب باقصاء الفكر الامبريالي ، لاننا لا نريد أن نغمض العين عن عدونا . على العكس ، نريد أن نستغرقه بحثا وفهما لنعرف كيف يتصيد عقولنا ومواقفنا ويحرفها نحو الاتجاه الذي ترسمه له مصالحه .

على اننا ينبغي أن نكون مزودين بوجهة النظر ، ان الاتهام والادانة المجانية لا يمحوان اثرا ولا يردان ضرورة . كما ان البحث العلمي في معطيات الثقافة الامبريالية اقدر على اظهار الوجوه الشائهة والمرامي الهدامة لهذه الثقافة . لقد رفضنا البورجوازية والاستعمار بكل أشكاله . ومن هذا الرفض ندرس ثقافتهما ونرد عليهما . وجهة نظرنا هي الرفض ، لا التجنب . التحليل ، لا الشتم . وجهة نظرنا في الانسان انه كائن مناضل يبني وطنا ، وفي الادب انه تعبير عن هذا النضال . ان كل اثر تقدمه الثقافة الامبريالية يحمل صك نفيه عن الوجدان العربي . ويستطيع الادب أن يلج الى هذا الميدان من بوابة واسعة . علينا عندما نترجم مسرحية لتنيسي ويليمز او يوجين يونيسكو ان نقدمها في اطار نقدي مبني على وجهة نظرنا نحن ، وعندما نقدم بحثا لجون ستراتشي أن نرده الى المنطلقات البورجوازية والرأسمالية التي صدر عنها . أن رسالة الاديب في هذا المضمار هي ان يعيد تقديم الادب الذي تحاربنا به الامبريالية العالمية وتقييمه بمقاييس قومية اشتراكية . وتجدر الاشارة هنا الى التقصير الواضح في كيفية تقديم هذا الادب ، وهو تقصير افاد مخططات الامبرياليين وسهل لها النجاح.

ان مهمة النقد غير كافية . قلنا ان لمقاومة الغزو الثقافي الامبريالي مسارين : التصدي والبناء . ونحن مطالبون بتقديم بديل للثقافة الغربية يكون في الوقت نفسه نموذجا لاصالة شعبنا ونضاله وصلة بعمره التاريخي . لقد خلفت الثقافة الامبريالية ، كما اشرنا ، ثلاثة انواع من ردود الفعل : النكوص ، والانخلاع والموقف الواعي ، ورسالتنا هي في الهجوم على موقفي النكوص والانخلاع وتغذية الموقف الواعي . نحن نحارب الثقافة الامبريالية بمحاربة اثارها . وعندما نكتب ينبغي ان نفكر في هذه المواقف الثلاثة وان نتجه في جملة ما نتجه ، الى اصحابها . ان لكل منها معطى سلوكيا واخلاقيا بينا ، لا بد وان تنعكس اثاره على مسيرة الامة ، وهذا ما يجعلها عوامل فعالة سلبا وايجابا ، في علم الاديب الخاص .

ان افضل ما تحارب به مخلفات الثقافة الامبريالية وضغوطها المستمرة على وعي الجماهير هو تقديم نماذج عربية نضالية . مطلوب منا ان نحارب تشكل هوية مزورة ، ان نحارب اليأس والمغامرات المرضية ، وان نقدم حياة هذا الشعب الذي يتصدى في حدود امكاناته ووعيه لاقوى قوة عرفها التاريخ واكثرها تعقيدا في المخططات والاساليب . اننا لن نحدد النموذج العربي النضالي فهذا امر يعود الى اختيار الاديب ورؤيته ، ونعتقد اننا جميعا نملك صورا متشابهة او متقاربة .

ان انتاج الاديب عملية توعية في حد ذاتها ، فهو معلم ، ونموذج ، وقائد . والشعب ينتظر منه انتاجا منيرا .

أن عملية البناء القائمة في جميع مجالات حياة الامة ينبغي ان تمتد الى عالم الثقافة . فكما نبني مصنعا وسدا ، ينبغي أن نبني ادبا خلاقا يصنع ثقافة الامة ويقف سدا امام التآمر الثقافي الامبريالي على وعي شعبنا .

ان مقاومة هذا التآمر تفترض ان يكون المقاومون على مستوى جدير من التحرر الذاتي . ربما تأثرنا نحن ايضا بالسأم والوحدة والعبث واللامعقول . ربما بقيت في نفوسنا شروش من الواقع الذي ثرنا عليه لا زالت تحجب عن أعيننا بعض الرؤية الموضوعية . لقد تفتح وعينا على قراءات غير منظمة ، فيها الغث وفيها السمين ، فيها ما يخلف انطباعات ومواقف متناقضة مع قضية لم نكن قد عرفنا بعد ملابساتها ، ومنها ما جعل بعضنا يغترب او يفقد هويته او يتعبأ بهموم انسان المجتمعات الامبريالية .

ولا نبالغ اذا قلنا ان أكثر قراءاتنا كان منصبا على ادب الامبريالية.

ان رسالة التحرر الذاتي تتطلب موقفا من النقد الذاتي . ولما كان الاديب ضمير شعبه ، فهو مطالب بتعرية نفسه من الطفيليات وتقويمها . ان نظرة خاطفة على انتاج الادباء في الوطن العربي تطلعنا على تأثر عميق بفكر وفلسفة الامبريالية . ولقد كانت المعارك الادبية تنشب ، والى زمن طويل بين أدباء كبار حول افضلية الثقافة اللاتينية وافضلية الانكلوسكسونية . ومن بيننا جماعات ادبية اتخذت اسماء اغريقية او أوروبية . ومنا من ذهب الى أبعد من ذلك ، فنفى ان تكون للعرب ثقافة عالمية أو جديرة . جميع هذه المواقف يعمل في خط مضاد للنضال المتواصل ضد الامبريالية . لقد اكتشف المثقف العربي بوجه عام ، والاديب العربي خاصة ، بعد عدوان الخامس من حزيران (يونيو) حقائق رهيبة . اين انتهى الاعجاب بغربة ميرسول وغيشان روكانتان وامراض اللامنتمي وانتظار غودو ؟ العبث واللامعقول واللاانتماء وبقية الطروح الغربية ؟ ماذا فعلنا بهذا الوطن والى اين اودينا بمعانيه ؟ لقد حقنا كثيرا من عروقنا بافرازات العقل الاوروبي والاميركي . تكلمنا عن جنس تينسي ويليمز وبياب ت. س. اليوت ، وفي الرمز والزمن والغيبة ، واشياء كثيرة كنا نغطي بها هشاشة تفاعلنا مع الحياة العربية وتهافت ايماننا بقضايانا . كان الخطر يقرع بابنا فنحسبه موسيقى . والسديم يغشى اعيننا فنحسبه رؤيا . لم نعشق وكتبنا عن الحب ـ لم نتألم وكتبنا عن المعاناة . لم ننتج ما نريد ومع ذلك تبجحنا . كل ما كتبناه انتهى الى جرم وتقاعس . والا فاين الوطن من كل ما كتبناه ، اين فلسطينه وخليجه ورجعيوه ؟ لقد ضاع كل شيء وراء عربة اسمها الرغبة ، في الكتب والسينما والمسرح التي نقلتها الينا رياح الغرب بأيد عربية . لقد اخرجت ثقافة الغرب الامبريالية الكثيرين من دائرة تاريخهم القومي . ابتلعتهم من ترابهم واطلقتهم في عالم جامح ، عالم يضربه سوط القوة ووهج الترف وبطر الحدود المخلعة بوجه عقل كسول مل من ذاته . وشعرنا ان علينا تقع مسئولية البدء والنهاية ، القبل والبعد ، والقبض على اطراف الكون

التتمة على الصفحة ١٢٨

رسالة الاديب العربي في مكافحة الامبريالية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٨ ـ

***

وتوهمنا اننا صرنا أبطالا عندما قفز وجداننا ليطوف الزمن والعالم . صرنا نحس بالخجل او الارتباك اذا تعرضنا لامور مدبرة مثل مأساة فلسطين ، وبالخوف من أن ندان أو ننتكس اذا اخترقت نظرتنا مداميك التخلف والزيف في ذواتنا . خرجنا من النصف الثاني للقرن العشرين الى الابدية ومن جمر وطننا الى مرجل الغرب . وانتهينا الى ان نتفرج على الاحداث وصناعة التاريخ ، لنطاق فيما بعد احكاما في غرفة مغلقة . صرنا في الخارج . تلهينا بالخمر والليالي الطويلة وقراءة الاشعار وحسبنا ذلك حياة . أردنا تحقيق الذات فرفضنا كل شيء وضربنا بسيف الادانة المقصورة كل قدم تعثرت على الطريق الصحيح . وهكذا نجونا .

نجونا لانهم في الغرب يبررون ذاتهم بهذه الطريقة . التاريخ هناك ليس ملكهم . سارترلا يساوي شيئا عند رينو وروتشيلد . ارثر ميللر لا يساوي شيئا عند روكفلر وفورد . لهؤلاء طنين وللآلات طنين وكل شيء بحساب . وهكذا يخرجون من دائرة التاريخ ويرسلون الينا ليخرجونا . في الغرب لا احد ينتظر غودو الا صاموئيل بيكيت ، ولا احد يرحل مع يدليسيز الا جيمس جويس . انهم ينتظروننا تربعا ويرحلون الينا استعمارا وتشريدا وافناء .

نحن هنا لنمون او نبدع لا لنبحث عن المعاني السابحة في السماء. الزمن لم يترك لنا فرصة الاحاطة بالعالم كما تريد ثقافة الغرب . نحن لم نخلق للغثيان ولا لنهاية اللعبة . حياتنا تطرق الابواب والنوافذ وبوسعنا ان نخرج لمجابهتها . لا بأس اذا لم نحقق المعجزات التي تجاوز حدود التاريخ . سنعرف على الاقل دورنا ومكاننا وقيمة عطائنا. قد لا نحمل صخرة سيزيف بل نكتفي بازاحة حصاة عن الطريق. وقد يسقط اهتمامنا ببحث بودلير عن وسيلة لاخفاء الانسان فذلك لا يهم . المهم ان نعود الى مرحلتنا ونفصد العروق الميتة التي تقعدنا عن الحركة. واذا لم نستطع أن نفسر العالم ونجد حلا لمشاكل الانسان الذهرية فلا بأس . يكفي اننا لم نترك ابناءنا في المكان نفسه الذي سلمه لنا آباؤنا بل مضينا بهم خطوة او خطوتين الى الامام .

انا مطالبون بتصفية جميع هذه الاوشال التي خلفتها الثقافة الامبريالية ، حتى باعادة النظر في رؤيتنا للواقع الموضوعي . ليس فقط ان معاناتنا وتمثلنا لهذا الواقع قد مال الى منظور قريب من الامبريالي وانما اننا لا نزال نحتفظ في ذواتنا بعلل عصرنا وشعبنا . بعضنا تسمه السلبية وبعضنا تسمه الاقليمية . وبعضنا الآخر يسمه الكسل وقلة الانتاج . ونحن في هذا نشترك مع قطاعات واسعة من الجماهير لم يتسن لها بعد تحريك جماعي والهاب لكافةطاقاتها الكامنة. ولسوف تصطدم رسالة الاديب وانتاجه بهذه المتاريس طالما هو يتحاشاها وينصرف عنها .

ان تقديم نماذج نضالية عربية لا يستبعد نماذج من النوع المضاد، النماذج السلبية او الاقليمية او الكسولة . ذلك ان بث الوعي ـ وهو جزء من رسالة الاديب العامة ـ ممكن بالتشخيص الفني لآفات مجتمع لا يزال يوضع بين المجتمعات المتخلفة . والنضال ليس فقط احراز مكاسب وانتصارات وانما هو معركة الانسان مع ذاته لاستيلاد انسان جديد . ان الكتابة عن ساكني الكهوف وعقليات بيت الطاعة والحريم، هي ايضا كتابة نضالية . وهي معركة نخوضها ضد الامبريالية مباشرة لان العقل الرجعي هو العميل الطبيعي والحليف الافضل للاستعمار . في بلادنا رجال عقولهم مربوطة بالمسبحة ، ونساء لا ترى وجوههن الشمس مباشرة ، وأطفال يدثرهم البرد والحر وتمتصهم حياة الازمة . في بلادنا يهدر الزمن وتسترخي الامكانات والطاقات امام نرجيلة او كأس او فيلم سينمائي . هؤلاء وليس غودو او ماتيو او يوليسيز ابطال حياتنا . نحن نعيش في مجتمع يتمخض عن ثورة حضارية شاملة . انساننا ينطلق نحو الافضل ، بينما انسان المجتمع الامبريالي يعاني من اعباء ضمير اثقله تاريخه بالاستعمار والعبودية ورأس المال .

ان دعوتنا للتحرر الذاتي تعني الانصراف الى انسان العالم الثالث وشعوبه . لقد ثبت لنا بالتجربة ان محاولة تقليد الصورة المتفوقة لانسان العالم الامبريالي لم تورثنا تفوقا ولا وعيا . ان جذورنا ضاربة عميقا في تربة لها نكهة العروبة وسلسلة مجيدة من الحضارات، وهي ما ينبغي ان يكون عالم اقلامنا الرحب . أن اول ما ننطلق منه وعي للشروط البشرية وللمرحلة التاريخية الراهنة في وطننا . نحن شعب متخلف تواجهه قوى عالمية تريد ابقاءه حيث هو او افناءه.وفي هذا المضمار امامنا عمل كثير ، وتجارب عالمية ترضي توق كل منا الى تقديم الافضل والابقى .

ثمة جانب آخر من جوانب التحرر الذاتي في شخصية الاديب وشخصية شعبه ، هو تعميق الحس الاشتراكي القومي. ان رسالة تقديم البديل تفترض ذلك بالضرورة . لقد قدمت الامبريالية نموذجا شائها وكاذبا للانسان وارادت ان تبثه في واعية شعبنا . وقد قدمت الرجعية العربية نموذجا آخر مغلقا سكونيا ومتخلفا وحاولت ان تبثه ايضا ضمن مقومات وأطر روحية وتاريخية احسنت استغلالها . واذا اعتبرنا ان الامبريالية والرجعية وجهان لكتاب واحد ـ وهما كذلك ـ ظهرت امامنا ضرورة تقديم بديل يحافظ على شخصية الامة الحية الاصيلة ويكفل تطورها وتفجير طاقاتها . نحن نعتقد ان انسان الحاضر والمستقبل العربيين هو الانسان القومي الاشتراكي واننا نطمح الى اقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد . هذا الاعتقاد يزودنا بوجهة النظر باسلوب الحكم والمعالجة .واذا ما قدم الاديب نماذج ، فانطلاقا من قربها او بعدها عن صورة النموذج القومي الاشتراكي . حتى عندما نكتب عن الجوانب السلبية والمتعطلة ينبغي ان يكون رائدنا تعميق هذا الحس القومي الاشتراكي . قد لا نستطيع نحن او بعضنا ان نحارب الامبريالية والصهيونية بأيدينا ، لكننا نستطيع ان نسهم في اعداد شعب يفعل ذلك .

ومن الملاحظ ان نموذج القومي الاشتراكي ، والنموذج المضاد غائبان تقريبا من ادبنا . نادرة هي الآثار التي تسعى لخلق هذه الصورة وجعلها محورا ادبيا عاما . ولا يستعنا طبعا الا الاعتراف بآثار قدمت هذه الصورة ، والتصفيق لها . ان طرح هذا النموذج جانب من جوانب رسالة الاديب في مقاومة الامبريالية . ذلك ان ابراز شخصية عربية جديدة وخلقها في صميم الواقع العملي المتحرك يعنيان بدء الانتصار المستمر على قوى الامبريالية فالامة لا تستطيع ان تحارب بشخصية مهزوزة او معدومة . وعلى الاديب ان يسعى ابدا لخلقها في انتاجه وفي سعيه لاقامة وحدة عربية اشتراكية .

ان المجتمع العربي الاشتراكي الموحد ليس خروجا على التراث ، كما تصوره الامبريالية وحلفاؤها وتحاول ايهام الجماهير العربية بذلك. لكن الامبريالية وحلفاءها دائبان على استغلال التراث وتقديمه على انه مناف للاشتراكية . وان النجاح الذي احرزاه في هذا الميدان يعود الى سببين : الاول هو توقف تراثنا عن النمو والتطور ، بحيث تقوقع وانغلق على ذاته طاويا في ذلك روائعه التي اعطت للعالم احدى حضاراته الخالدات . لقد دخلت الى تراثنا بذور الرجعية والعطالة ، وبمرور الزمن انفصل الذهن الشعبي عن فهم معانيه وتطويره . وهكذا صار سهلا ان تستخدمه الامبريالية وحلفاؤها سيفا مصلتا في وجه مسيرة النمو والتقدم .

والسبب الثاني هو تقصيرنا في تقديم تراثنا تقديما ايجابيا ونشاط الامبريالية وحلفائها الضخم في تقديمه تقديما شائها . لقد اذكت الامبريالية وحلفاؤها الروح الطائفية والعصبية الدينية، وقسمت حضارات وطننا عبر التاريخ الى ظواهر منفصلة وجعلت منها تاريخا قوميا لكل قطر : الفينيقية ، الفرعونية ، البابلية والاشورية ، الارامية. وعندما وصلت الى حضارة الاسلام اعتبرتها رسالة دينية بحتة ونفذت من خلال ذلك الى غرس حس طائفي ما زالت تستغله حتى الآن .

ان امام الاديب مهمة ضخمة وعظيمة في تخليص تراث امته من

المفاهيم التي الصقها بها الاستعمار قديما وحديثا ، وفي تقديم هـذا التراث بتفاسير علمية تقدمية وأسقاط الجوانب الميتة منه .

نحن لسنا وحدنا في وجه تآمر الامبريالية على تاريخنا . جميع شعوب العالم الثالث مثلنا . وان أسقاط الجوانب الميتة منه عملية لن يأسف لها الا الرجعية لانها احد مصادر رزقها وبقائها . ان تقديم التراث بتفاسير علمية تقدمية يصلنا به على نمو اعمق وافضل وأكثر وعيا . لقد حفل تاريخ شعبنا بتجارب انسانية وقومية ممتازة هي بالنسبة لنا الآن منارات على الطريق الصعب . وليس علينا الا ردها الى أصولها الشعبية لكي ننتزع من أيدي الامبريالية وحلفائها سلاحا ماضيا .

نحن متهمون بالاساءة الى تراث أمتنا ، بالتنكر له وبالخروج عنه واهماله . والامبريالية ترسل عملاءها وراءنا ليتصيدونا في سلوكنا اليومي ويشهروا بنا في صحفهم ومجلاتهم . ان ردنا على هذا الاستغلال البشع لحضارة صنعها شعبنا يكون بفهم واستيعاب هذه الحضارة وابرازها على حقيقتها العلمية الناصعة . نحن ورثنا حمورابي واخناتون ومحمد (ص) وليست الامبريالية والرجعية . وينبغي ان نبقى على موقفنا الصامد تجاه جميع التيارات السلبية التي لحقت بتاريخهم فعطلته وطمرت جذوره ورسالتنا تتعدى نبش تراثنا من المطامر التي زجته فيها الامبريالية والرجعية ، الى وصله بحاضرنا المضطرم ووضع جذوته في مجمر ثورة ثقافية شاملة واعية .

ان اقوى ضربة توجه للامبريالية وحلفائها ، مما يستطيع الاديب توجيهه هي الهاب التراث من جديد الهابا يغذي ثورة الانسان العربي الحاضرة . ان حرق النماذج البديلة التي تطرحها الامبريالية في السوق العربية وتجريد العدو من أسلحته الثقافية متوقفان على مقدار نجاحنا في اذكاء قدرة العقل والتحدس العربيين . ونعتقد اننا في غنى عن توكيد ضرورات الثورة الثقافية ، فنحن قبل كل شيء ، نعيش ونصنع ثورة ، بعضها الثقافه ورسالتنا هنا هي تعميق الفكر الثوري والسلوك الثوري ، وطبع حياتنا في جميع حالاتها ومواقفها بموقف ثوري عميق الوعي عميق الايمان . وفي تراثنا تلك الجذوة الضرورية للوجدان العربي في انطلاقته الحضارية المعاصرة . كان حمورابي ثورة واخناتون ثورة ايضا ، وكان محمد ثورتنا الكبرى . تاريخنا حافل بالثورات والتجدد والتقدم في آفاق العالم الرحيبة . وان ما علينا أن نفعله هو توكيد ذلك وتجديده .

الالتزام :

يفضي بنا الحديث الى مشكلة الالتزام . ونقول مشكلة لان الواقع الراهن يعيشها على هذا النحو . فمن اختلاف التفاسير الى اختلاف المواقف ، الى المهاجمات والاتهامات ، تعقدت قضية الالتزام . ويهمنا هنا ان نتصدى لموقفين لهذه القضية : هما موقف الامبريالية والبورجوازية الرجعية في وطننا ، وموقف المسطرين .

تصور الامبريالية الالتزام في البلدان الاشتراكية على انه هراوة عقائدية تستخدمها السلطة لتقمع الاتجاهات غير الملتزمة بسياستها . وتجعل من مبدأ الالتزام بالشعب صيغة فاشستية تبرر السجن والتشريد والملاحقة . أن هذا التصوير متوقع ومنسجم مع غايات الاستعمار ومراميه . فهو لا يريد لاية حركة شعبية ان تنجح في تنظيم نفسها أو تقديم عطاء جدي وهو يعزف على وتر الحرية لمعرفتها بانها تنقلب في البلدان المتخلفة الى فوضى وهدر وتزوير . وهو يخاف من ايما التزام شعبي تقدمي سياسيا كان أم ثقافيا ، لانه في النهاية سيقضي على مصالحه وسيطرته . أنه يريد من الاديب العربي أن يجلس في المقهى ويملك الاتهام والادانة ، فاذا ما حل الليل عمد الى زجاجة خمر ويجلس في مكان ما منتقدا او مهددا او يائسا . الامبريالية تعرف ان الالتزام بالنسبة للاديب العربي بوصلة في الضباب ، انه سيجعله عاكفا على ذاته وشعبه يستنبتهما ويستولدهما بعيدا عن الارتجال والسلبية ، ملتحما بايمانه الاصيل ، ساعيا وراء الانسان الجديد الذي قرر ان يصنعه لمجتمعه .

ان مبدأ الالتزام بقضية الشعب يعني بلورة نضال الاديب ضد الامبريالية في مذهب متكامل ايجابي وتعرية المخططات الثقافية الاستعمارية الهادفة الى تشويه شخصية العربي أو تغريبها . ومن المحتمل ان يجابه ضمير الاديب أخطاء مسيرة وعرة على طريق الثورة، فيترجرج موقفه او يلتبس ما لم تكن رؤيته عميقة ومؤمنة . وتستطيع الامبريالية أن تنفذ بسهولة من خلال اخطاء المسيرة لتحاول ضربها ، وتعيد تقديم أنموذج الليبرالي كبديل مرة اخرى . وهنا يقف الاديب الملتزم موقفه الطبيعي المتجاوز . انه ليس موقف تبرير وتغطية ولكنه نقد ذاتي ايجابي يستفاد منه في تجنب أخطاء مماثلة على الطريق الصحيح .

ولعل من المناسب هنا الاشارة الى أن الدعاوة الثقافية الامبريالية قد استطاعت تعرية الموقف السلبي الذي تركته عصور التخلف في مجتمعنا . فكل خطأ ينبط الهمة ويعطي تبريراً جديداً للكسل والعزلة. والاديب بحكم حساسيته الخاصة من اكثر الناس تعرضا وتقبلا لمثل هذا الايحاء المسموم . أن لديه مثالا عن ثورة تقوم باسم الشعب لصنع حضارة جديدة ، وهو لا يقبل أن يجرح مثاله . وهكذا ينجرف في تيار النقد السلبي ويفقد الامل . أن الالتزام يعني أولا بأول الايمان الذاتي المتحقق عن طريق القناعة الشخصية . وهو ليس دينا بمعنى انه ينطلق من مسلمات قبلية ويبني عليها ، بل هو مذهب ينطلق من العلم والحقيقه العلمية ، ولذلك فصفته الاساسية هي الموضوعية . والملتزم بهذا المعنى مسئول وصلب الايمان .

الموقف الثاني تجاه الالتزام بالشعب موقف من سميناهم بالمسطريين . وهؤلاء يتهمون الالتزام على انه عبارات غزل وتمجيد توجه للسلطة وللشعب وللمنجزات المتحققة وغير المتحققة . أن مثل هذا المفهوم عن الالتزام يفقده قدرته على التحرك والانتاج ويفرغه من محتواه. ضرورة استمرار الثورة لا تبرر السكوت عن انحرافاتها ومهمة الاديب أن يعلن رؤيته من موقف ايجابي .

ونحن نرى أن كلا الموقفين غريبان عن رسالة الاديب العربي في الالتزام . فليس صحيحا أن الالتزام يتنافى والحرية ، أو أنه طبول ومزامير للسلطة . أن اكثر الناس حريه أكثرهم التزاما . والالتزام ولادة حره لانه بالاصل مصيري . أنه ليس ولادة قيصرية ولا نموا مبرمجا . وكذلك فهو ليس تقريراً سياسياً ولا حزازير تكتب على انها رموز لتسجيل حوادث تاريخية . وهو شيء آخر غير بطاقة النجاة يبرزها حاملها لشرطة الحياة اليومية . الالتزام لا يعني تضييع سمات الثوريين أو خصائصهم ولا وضع الكلمات تحت اقلامهم . وعلى هذا النحو لا خوف منه .

ان يكون الاديب ملتزما يعني عثوره على رؤية متماسكة متكاملة يؤمن بها ، يعني تكوين قناعات تجريبية ثابتة عنده يمنحها عطاءاته في أطار الابداع والتجديد الذي تفرضه حيوية الثورة . وهو بعيد عن ان يصور الكادحين تصويراً متفائلا يبهج النفس وحسب . وليست مهمته اضافة السكر الادبي الى الشاي الثوري : العمال يذهبون الى المعامل ضاحكين أو منشدين أغنيات الثورة ، الفلاحون يقبلون على العمل التعاوني بروح معنوية عالية وبتصميم لا يهون ، الجنود يحاربون وليس في قلوبهم ذره من الخوف البورجوازي الاصيل .

ان الثورة قاعدة الحرية . وعلاقة الاديب بها علاقة جدلية تفرض نفسها عبر حيوية الثورة والالتصاق التلقائي للاديب بسيرتها. وليس المقصود هنا أن الادب كل الثورة ، لكنه في الحيز الذي يمتلكه يغدو سيد أرضه . أنه ليس دفوفا تدق ولا مزامير تهز . وانما هو ابداع الانسان الجديد سلوكا ومعاني وعلاقات منتجة عادلة .

الحرية عنصر من عناصر الالتزام . انها المجال الحيوي الارحب والاوسع مدى للاديب كي يقدم محصوله ، تماما كما هي الارض مجال الفلاح الحيوي لانتاج القطن والحبوب والثمار . والاديب الملتزم هو ذلك المهاجر المبدع في وطنه المنشود ، الفلاح على ارض الادب يزرع الكادحين والمنتجين في تربته وينميهم ليقدم للآلاف سنوات التاريخ المقبلة لوحة عن الانسان في عصره وثورته .

الاديب الملتزم يستهدف الانسان مطلقا وغاية . هو كمعنى رد الاعتبار للكادح ، وكعملية اشباع لجوعه التاريخي . والجوع ليس فقط حضور الحاجة الى الخبز ، فليس بالخبز وحده يحيا الانسان . ان

العبد الشبع والحر المتضور صنوان ، وهما شاغل الاديب الملتزم وقضيته . نحن لا نستطيع ان نجزىء الانسان الى معدة وعواطف واكف. وكما لا يمكننا تقليصه الى رغيف خبز لا يمكننا القبول به بالونا منفوحا بالشعارات والعبارات الخلابة تستطيع جزمة الفلاح ان تفجره .

الاديب الملتزم لا يكتب فقط عن شعبه وانما يبدعه . واذا تذكرنا دعوة فرانز فانون للمثقفين ان يتجاوزوا ماركس وفرويد وسيزير وسنغور ونرومانى البحث عن نماذج ، الى ان يبدعوا ويخلقوا،ادركنا عظم مسئولية الاديب في عصر جامح مخلخل مليء بالمتناقضات الماركسية والعقد الفرويدية . ان مسئوليته هي ان يبني الانسان من جديد، يبنيه بعيدا عن التقاليد المبلهة والاساطير والكسل التاريخي . لم تعد الكتابة تصيدا لشهرة ولا تتبعا لترف جمالي ، لا ترفا ذهنيا ولا تزجية لاوقات فراغ ، لا تسيبا ولا امتيازا بورجوازيا . الكتابة خلق ، اعطاء معان متجددة لحياة الانسان العربي لئلا تسيح في مساومات الامبريالية وبيوت عناكبها . ومن هنا فالالتزام بعيد جدا عن ان يكون رقصة كهان في معبد القضية الثورية .

ان الثورة ضرورية حتمية ، كما يقول فانون ، وانتصارها امر لا مناص منه . وان الانسان اللامنتمي ، المحايد يلاقي مصيرا فاجعا في عصر لم يعد يحتمل انسانا بلا قضية . والاديب الملتزم مطالب بثورة في الادب تعطيه شكلا وبنية جديدين . ومثلما هي الاشتراكية عملية تغيير للبنى الاجتماعية وتهشيم للبناء الهرمي للطبقات كي يبعث من جديد مجتمع المساواة والعدالة ، فان الادب عملية ايلاد صيغ جديدة تلائم المعاني الجديدة التي يسهم جميع الكادحين في خلقها.والاشتراكية والادب ابنا الثورة الشرعيان ، الخبز ومعنى الحياة .

في وطننا ، ونحن الآن نواجه جموحا مباشرا واحتلالا عسكريا ومؤامرات مستمرة ... من قبل الامبريالية ، في هذا الوطن الممتحن بكونه جبهة امامية لآسيا وافريقيا ، نرى أن للالتزام آفاقا ثلاثة هي :

رؤية مستقبلية ـ رؤية جماهيرية ـ موقف نضالي

لقد المحنا الى ان الالتزام ليس وليد الصدفة ولا المرحلة العابرة، وانما أختيار ينطلق من ايمان راسخ بقضية ومصير . انه لاجل ذلك يعمل للمستقبل ويبشر به ، ويشخص الحاضر واقعا وتجارب بوعيه للمستقبل . التشخيص والعمل اذن انطلاقا نحو الغد المأمول . لا شك ان في بعض مراحل الثورة نكسات ، ونحن الآن نعاني احداها . لا ينتهي دائما نضال الشعب الى نصر .

تبين حتى الآن اننا ربطنا الالتزام بقضية الشعب . لم نربطه بقضية فنية ولا بأسلوب في التعبير . ان مثل هذا الترف متروك لادباء البرجوازية والعالم الرأسمالي لكننا لا نستطيع ان نقفز من فوق اغراءات الفن والاكتشاف فان لها مخاطبتها الخاصة للنفس البشرية . كما ان الامبريالية تحسن دغدغة النوازع الشخصية من مغامرة واكتشاف وحب للمجد الشخصي فتلقي بثقل اجهزتها الثقافية والاعلامية للترويج للنماذج الفردية التي تعيش في عوالم ذاتية براقة. اذ لهذه النماذج بريقها وجاذبيتها ، ولها ايضا رسالتها غير الخافية عن احد وهي صرف الاديب عن تجديد ذاته تجديدا اصيلا بين قومه وفي وطنه .

نحن لا نقف موقف الشجب والمنع ازاء الاكتشافات الادبية في الاسلوب وفن الكتابة ، ولا يمكن ان نقف هذا الموقف . وفي الحقيقة ان الاديب متروك كلية لتجربته الادبية ينميها ويطورها غير مشروط بشيء سوى الاصالة . واكثر من ذلك ان الثورة القومية الاشتراكية ، بما هي من نزوع للتجديد وحركة نحو الخلق والابداع تفترض بالضرورة انماطا جديدة من التعبير عن ذات الامة وذات الفرد . وسوف نذهب الى ابعد من ذلك فنقول ان الاديب الملتزم اقدر من غيره على تغيير او تحطيم القوالب الجامدة . ان تيارات التجديد تتلاقى جميعها في بحر الثورة سواء منها ما كان في السياسة والاقتصاد او الاجتماع والثقافة .

لقد انطلقت رياح التجديد من مختلف النوافذ . بعض الادباء طالب باسقاط اللغة العربية الفصحى واعتبرها منافية للطبيعة الشعبية ودعا الى اللهجات المحلية العامية وسموها لغات . وقد التقت هذه الدعوة مع المخطط الامبريالي لضرب نضال الشعب العربي من اجل الوحدة وعزل تجمعاته في دوائر اقليمية تزداد انفصالا بازدياد استعمال اللهجة العامية في ادبها .

الالتزام بالشعب لا يمكن ان يعني تغذية واقعه الفاسد ونحن نعلم ان نشوء اللهجات الاقليمية كان محصلة للتجزئة واستمرارا لها ، مثله في ذلك مثل الدعوات القومية الاقليمية والدعوات الى التغرب ونبذ التراث . الالتزام بالشعب يعني استيعاب همومه وآماله والعمل على تطوير حياته وخلق ظروف افضل لها . لقد حاولت التيارات المضادة التي بثتها الامبريالية ان تحجب عن الاديب مشاكل الشعب الحقيقية التي هي التخلف والتجزئة والسقوط بين اذرع الاخطبوط الامبريالي . ويبدو واضحا ان التزامه بنضال شعبه يتضمن اغلاق النوافذ التي تهب منها رياح دعوات عميلة كهذه .

ان شعبنا يعاني من مشاكل التخلف والتجزئة والاستعمار معاناته الكبرى.فلسطين والخليج العربي وأرتريا وجنوب السودان واسكندرون، ليست بعيدة عن واعيتنا ، اربع عشرة دولة في الوطن العربي وفي الجامعة العربية ، بدلا من دولة واحدة وشعب موحد الطاقات، خارطة نرسمها كل يوم . مظاهر التخلف وما ينجم عنه من نكسات ليست خافية على احد . هذه المشاكل في عين الاديب مصادر انتاج لا تنضب ، ليس ثمة أغنى من حياة شعب يسابق نفسه ويسابق الزمن ، يكبو هنا وينهض هنا ، يخوض معركة ويبني سدا ، ثمة صراع دائم داخل الذات وخارجها ضد الركود والفقر والعبودية وتلك هي مشاكل الانسان الدائمة .

ما هو موقف الاديب الملتزم من هذه الجوانب الحياتية الغنية لشعبه ؟ قلنا في مكان سابق من هذا المقال ان الاديب ليس متفرجا ، وليس شاهدا وحسب ، وانما هو مشارك . ان هذا التعريف يتكلم عن اديب ملتزم ، والتزامه نضالي . ان خروجه من شعب كشعبنا وانتماءه لوطن كوطننا يحتم عليه احد أختيارين : النضال أو العمالة .

واما غير المرتبط بهذا او بذاك فهو منبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى ولا ادبا قدم .

يناضل الاديب الملتزم لتعرية واقعه العربي ورصد نضال شعبه ، فاذا كان الواقع والنضال ما اسلفنا ، قلنا ان حقبة تاريخية نمر بها الآن هي اغنى مما نتصور ومما يستطيع اديب بمفرده ان يحيط بها . لقد هاجمتنا الامبريالية بسلسلة من المؤامرات والعدوانات ، وشل التخلف والتجزئة الكثير من امكاناتنا وجهودنا كما اتخذ نضال شعبنا مسيرة جديرة بالتسجيل . وهذه الوقائع تلتصق بحياة الاديب الخاصة والعامة التصاقا مباشرا . ان الواقع العربي في حاجة الى تعرية لكي تتوضح صورته في اذهان الشعب . وان تقديم الحلول والعمل لانجازها يحتاجان لاكثر من نبي واحد ! فعصرنا هو عصر الشعوب ومعركتنا تحتاج الى الجميع .

ويناضل الاديب ايضا في ميدان الذات الفردية التي لا زالت تحتفظ بشروش عتيقة وصفات نفسية رجعية . ان تعرية الذات العربية جزء من نضاله اليومي . كيف يعيش الفرد العربي ؟ كيف هي علاقاته بالآخرين : في البيت والعمل والنوادي والحياة العامة ؟ ان صورة الانسان التقدمي لم تكتمل بعد . لا بد من هجرة في الذات والجماعة لاستكمال شروط تكونها عبر المعايشة والنقد الذاتي وان نجاح مقاومتنا للامبريالية رهين من احد وجوهه ، بتكامل الشخصية العربية وتحررها الذاتي .

مرة اخرى الاديب يناضل لتعرية المخطط الامبريالي والتصدي له وميدان نضاله لا يقتصر على الجانب الثقافي ، بل يشمل الحياة القومية بأكملها . ان السياسة خبز يومي ليس بمعنى العلاقات الدبلوماسية وحياة الكواليس ، وانما بمعنى النضال التحرري المستهدف اقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد .

والاديب الملتزم ، في كل ما تقدم ، يكون بشيرا ونذيرا ، بشيرا بالمستقبل والغايات العظمى ونذيرا بتآمر الامبريالية وحلفائها ، وبعدوانهما المستمر على شعبه .

هاني الراهب